Diyala Journal
for Human Research
Website:
djhr.uodiyala.edu.iq

مجلة ديالى
للبحوث الإنسانية

p ISSN: 2663-7405
e ISSN: 2789-6838

مجلة ديالى للبحوث الانسانية
العدد (100 ) المجلد (1) حزيران 2024

# الفصاحة بين علماء الإعجاز وعلماء البلاغة قراءة في المفهوم والوظيفة

# The Eloquence between Scholars of Inimitability and Scholars of Rhetoric: Reading in Concept and Function

م.م. فرياد أبوبكر علي
وزارة التعليم العالي/ جامعة حلبجة

أ.د. نشأت علي محمود
وزارة التعليم العالي/ جامعة صلاح الدين. أربيل

*Email:* *fryad.ali@uoh.edu.iq*
*drnashat2006@gmail.com*

**Published:** 1- 6-2024

**Keywords:** إعجاز القرآن، المفهوم، الفصاحة، المصنفات، الغرابة

هذه مقالة وصول مفتوح بموجب ترخيص
*CC BY 4.0*
*(http://creativecommons.org/licenses/by/4.0/)*

***Abstract***

***Inimitable rhetoric stands out as a distinct branch within Arabic rhetoric. It focuses on the language of the Qur'an, analyzing its linguistic arts and methods to prove the impossibility of presenting anything similar to the Qur'an. This study, titled "A Study of the Concept of Eloquence and Its Function from the Perspectives of Rhetoricians and the Scholars of Qur'anic Inimitability," aims to explore the roles and effects of Quranic rhetoric on the establishment of Arabic rhetoric during its formative stage. Additionally, the research delves into analyzing the rhetoric found in literature discussing the miracles of the Qur'an, emphasizing understanding the employed rhetorical strategies to explore their significance and influence on the development of Arabic rhetoric. The study also investigates early books on Qur'anic miracles from the fourth and fifth centuries of the Hijrah and beyond, contributing to a broader understanding of Qur'anic rhetoric's enduring impact on the Arabic language. Using an inductive and analytical approach, the study incorporates evaluation and criticism based on rhetorical concepts. Notably, it finds that an unusual lexicon is not necessarily viewed negatively. It can enhance linguistic beauty, with certain unfamiliar words contributing positively to the aesthetic of language when conveying meaning through a distinctive form in speech.***

## الملخص

تعد البلاغة المعجزة فصلا مميزا ضمن البلاغة العربية، حيث تستعرض لغة القرآن، وتحلل الأساليب والفنون اللغوية المستخدمة في القرآن الكريم بهدف إظهار استحالة تقديم مثل يقارن بالقرآن. وفي سياقها، تقوم هذه الدراسة بمهمة إبراز الآثار والتأثيرات التي تركتها البلاغة القرآنية على تشكيل البلاغة العربية في مرحلة تأسيسها، تقوم الدراسة بتحليل البلاغة في مصنفات إعجاز القرآن، حيث يكون التركيز موجها نحو فهم مصطلح الفصاحة و وظيفتها في هذه المصنفات، كما تركّز الدراسة على استكشاف مكانة مصنفات الإعجاز الأوائل التي نشأت في قرني الرابع والخامس من الهجرة وما بعدها؛ مسهما بذلك في رؤية أوسع للتأثير المستمر للبلاغة القرآنية على اللغة العربية وتطويرها. وتبنت الدراسة المنهج الاستقرائي التحليلي، مع إبداء بعض التقييم والنقد حسب الحاجة وفقا للمفاهيم البلاغية المطروحة. ومن أهم ما توصلت إليه الدراسة أن الغرابة لا تعتبر سلبية على الدوام، بل قد تكون جزءً من مظاهر الجمال اللغوي. بعض الكلمات والتعابير التي تظهر بشكل غريب قد تضفي جمالًا على اللغة، وإن المعنى الفصيح الذي يأتي بشكل فريد وغير مسبوق يعتبر من عناصر القوة في الكلام.


## المقدمة

يندرج استقصاء المصطلحات ضمن أهم المباحث في مجاري العلوم، ولا يمكن فهم أي علم من دون فهم مصطلحاته. ولسعة انتشار العلوم الأخرى وتداخلها قامت المصطلحات باختصار المفاهيم التي تجمعها جهة وحدة ذاتية لتكون في كلمة واحدة، أي: أن يكون المصطلح من كلمة مفردة أو من كلمتين على سبيل التّقييد بالوصف أو بالإضافة، فصارت المصطلحات عنوانَ مفاهيم يجري شرحها في تعريف يوضّح معانيها ويبيّن مفاهيمها، ولذلك من الصعب الوصول إلى فهم البلاغة واستعابها من دون ضبط مصطلحاتها، ولكي نفهم طريقة نشأة البلاغة وسبيل تكوينها بوصفها علمًا لا بدَّ من البحث في المصطلحات التي كانت ممهّدة لفهم علم البلاغة، ومجاري نشأتها في مصنّفات إعجاز القرآن، والبلاغة كغيرها من العلوم، لم تكن مصطلحاتها منضبطة في بداية أمر نشأتِها. تعد مصنفات إعجاز القرآن من المصادر التي تتمخض بالمصطحات الممهدة لعلم البلاغة وذلك نظرا لمكانتها الأدبية، وهذه المكانة التي تربَّعت عليها مصنفات الإعجاز أدّت بالدارسين إلى أن يدرجوا هذه المصنفات ضمن مراحل نشوء علم البلاغة. والقضية الأساس التي صارت مسار بحث في علم البلاغة منذ وقت السّكاكي (626هـ) واستمر الأمر بعد ذلك هي قضية فصل مفهوم الفصاحة من مفهوم البلاغة. ولكي نفهم قيمة المنجز الذي بحثه علماء إعجاز القرآن لا بد من بيان المسار البحثي عندهم في قضية مفهوم الفصاحة، وما حملته من المنجز البلاغي الذي أثر في مسار التفكير البلاغي فيما بعد، وقد جاء البحث في تمهيد بحث الفصاحة عند علماء إعجاز، ثم جاءت

المحاور الثلاثة في بيان مجريات الفصاحة وضوابطِ حسنِها وطريقة إجرائِها، فجاء المحور الأول بعنوان (التلاؤم والتنافر بين علماء الإعجاز وعلماء البلاغة)، ثم تبعه المحور الثاني الذي كان بعنوان (الغرابة في اللفظ بين علماء الإعجاز وعلماء البلاغة) وأمّا المحور الثالث فقد كان في بيان (عيوب الفصاحة بين علماء الإعجاز وعلماء البلاغة)، ثم جاءت خاتمة البحث بذكر أهم النّتائج، والله الموفّق دوما.

**التمهيد: الفصاحة عند علماء إعجاز القرآن:**

الفصاحة تعد من المصطلحات التي تحتل مكانة مرموقة في البلاغة العربية، وهي جزء من مصطلح البلاغة؛ وذلك لأن البلاغة على ما تقرر عند العلماء مطابقة الكلام لمقتضى الحال مع فصاحته، فكل كلام بليغ فصيح وليس العكس. وقد ورد مصطلح الفصاحة في القرآن الكريم، كما في قوله تعالى: ئي ﯙ ﯚ ﯛ ﯜ ﯝ ئى(1) وبين الجاحظ (255هـ) المراد من لفظ (أفصح) على لسان موسى في الآية الكريمة بأنها ((رغبة منه في غاية الإفصاح بالحجة، والمبالغة في وضوح الدلالة، لتكون الأعناق إليه أميل، والعقول عنه أفهم، والنفوس إليه أسرع.))(2)

تناول علماء الإعجاز الفصاحة، وهي عند الرماني (384هـ) تندرج ضمن باب (البيان)؛ وذلك لأن من شأن الكلام الموصوف بالبيانِ أن يكون فصيحا، وأشار الرماني (384هـ) إلى معنى الفصاحة بأنَّها لا تقتصر على سلامة اللفظ والمعنى وجزالتهما فحسب، بل لا بد من تحقيق حسن الترتيب بين أجزاء الكلام، وعبر عن ذلك بـ (تعديل النظم) حيث ذكر في مراتب البيان أن ((أعلاها مرتبة ما جمع أسباب الحسن في العبارة من تعديل النظم حتى يحسن في السمع ويسهل على اللسان وتتقبله النفس تقبل البرد.))(3) وذلك لأن التعقيد إنما كان مذموماً لأجل أن اللفظ لم يرتب الترتيبَ الذي بمثله تحصُل الدَّلالة على الغرض، حتى احتاج السامع إلى أن يطلبَ المعنى بالحِيلة، ويسعى إليه من غير الطريق، كقول المتنبي في الكامل:

**ولذا اسمُ أغطية العيون جفونُها          من أنّها عَمَلَ السيوفِ عواملُ**(4)

وإنما ذُمَّ هذا الجنس من الكلام، لأنك تضطر إلى فكر زائد على المقدار الذي يجب في مثله.(5) وذلك مع كون مفرداتها دانية القطاف لا يستعصي فهمها، وإنما الباعث في ذلك كيفية رصف وحداتها.

---

1 ) القصص: 34

2 ) البيان والتبيين، الجاحظ (255هـ): 1/ 31

3 ) النكت في إعجاز القرآن، الرماني (384هـ): 107

4 ) ديوان المتنبي: 178

5 ) أسرار البلاغة، عبدالقاهر الجرجاني (471هـ): 142

وحاول الخطابي (388هـ) أن يبيّن مفهوم فصاحة اللفظ، فذكر أنَّ اللفظ الفصيح ((ما كان جزل اللفظ، حسن المعنى.))[1] وأمَّا فصاحة الكلام عنده فيما نقله فهي: (( الاقتدار على الإبانة عن المعاني الكامنة في النفوس، على عبارات جلية، ومعان نقية بهية.))[2]، والعبارتان تتظافران في بيان معنى فصاحة المفرد والكلام في قالب واحد إلى حد كبير؛ إذ عني بهما استقامة اللفظ والمعنى وحسنهما، إلا أنه اشترط في الثانية وجود القدرة الكافية على الإبانة عما في داخل المتكلم بالفصاحة، ويبدو من كلامه أنه يرتضي الأولى؛ لأنه ذكر الثانية بصيغة التمريض: (قيل). وربما استفاد في كلامه هذا من الجاحظ (255هـ)، لأنه قد تحدث عن الفصاحة، وخص لها فصلا تحت عنوان: ((في صفة من يقدر على الإبانة.))[3] وذلك لأن الاقتدار على الإبانة مشروط في الفصاحة لدى كل من الجاحظ (255هـ) والباقلاني (403هـ).

ويشير الباقلاني (403هـ) إلى قضية مهمة في الفصاحة، هي: تفاوت درجات فصاحة اللفظ نظرا لمكانة المعنى لدى المرسل، وإن الفصاحة تكون في بعض أحوالها سهلة منقادة لصاحبها، فكلما ضعف حظ الاعتناء بالمعنى كان المتكلم أملك لزمام الألفاظ يتصرف فيها كيفما يحل له، وإذا كان الاهتمام حليف المعنى فتضيق الألفاظ على المرسل بما رحبت، ويذكر الباقلاني (403هـ) مجال ذلك في حديثه عن قول الله تعالى عن الشعراء: ئيچ چ ڇ ڍ ڌ ڌ ڎ ڎ ڈ ڈ ئی[4] فبين سبحانه ((أنهم يتبعون القول حيث توجه بهم، واللفظ كيف أطاعهم، والمعاني كيف تتبع ألفاظهم. وذلك خلاف ما وضع عليه الإبانة عن المقاصد بالخطاب، ولذلك كان طلب الفصاحة فيه أسهل وأمكن.))[5] فذكر أنهم ينتقون الألفاظ المستحسنة لديهم دون النظر في المعنى، فبذلك تكون المعاني تابعة للألفاظ وتسهل عملية تحلية الكلام وفصاحته الشكلية مع عدم الالتفات إلى الجانب المعنوي، والحقيقة أن الفصاحة ليست بتتبع الشاعر أو الناثر الكلمات الرنانة الجميلة فحسب، بل هي الإتيان بمعان معقولة في ألفاظ مقبولة.

أما القاضي عبد الجبار (415هـ) فقد كرس معظم جهوده في الإعجاز لمسألة الفصاحة، وخص لها فصلا سماه: (في بيان الفصاحة التي فيها يفضل بعض الكلام على بعض)، وما أدلى به حول الفصاحة يفوق حديثه عن البلاغة، وأشار إلى نقاط جوهرية مهمة في الفصاحة:

---

[1] ) إعجاز القرآن، الباقلاني (403هـ): 127
[2] ) المصدر نفسه والصفحة نفسها.
[3] ) رسائل الجاحظ، الجاحظ (255هـ): 4/ 237 – 239
[4] ) الشعراء: 225 – 226
[5] ) إعجاز القرآن، الباقلاني (403هـ): 226

1. إن الكلام لا يعد فصيحا إلا إذا جمع بين أمرين، هما: جزالة اللفظ، وحسن المعنى. وإذا كان الكلام جزل اللفظ ركيك المعنى لم يعد فصيحا. وبهذا يعلم أنه يرى أن الفصاحة تشمل المعنى كما تشمل اللفظ.[1] وهذا معيار لا نملك إلا أن نشيد بدقته، لأنه يوقف على معايير موضوعية أخرى لا تتصور الفصاحة إلا بها، وكلما زادت معالم هذا التوافق في اللفظ والمعنى اتضحت الفصاحة وبرزت في الكلام.[2]

2. ليس للفصاحة نظم مخصوص، ولا يشترط في فصاحة الكلام أن يكون شعرا؛ لأن الخطيب قد يكون أفصح من الشاعر.

3. وقد يكون نظمان تناولا معنى واحدا لكن أحدهما أحسن من الآخر وأرفع، لأن المعبر عن الآخر يكون أقل فصاحة في ألفاظه من الأول، وبذلك تقع المزية في الفصاحة، والمعتبر يكون بجزالة اللفظ وحسن المعنى؛ لأن هذا الذي يتبين في كل نظم وكل معنى؛[3] وذلك لأن المعنى له أهمية بالغة، فلا تستقيم فصاحة الكلام بتزيين الألفاظ وتنميقها وحدها، والمعنى هو الحاكم الذي يحدد نطاقا للمتكلم ليختار الأفضل بين مجموعة محددة من الألفاظ التي تتماشى مع المعنى المراد.

4. ويشير القاضي عبد الجبار (415هـ) إلى نقطة مهمة في الفصاحة، وهي: أن المزية في الفصاحة لا تكون بأصل المواضعة.[4] بل إجراء الكلام على غير معناه المعجمي هو الذي يمنح الكلام المزية في الفصاحة، وهذه قاعدة رصينة توحي إلى أهمية العدول اللغوي. والخروج عن المألوف المعجمي أو الإسنادي يفسح المجال أمام المتكلم لإطلاق عنان التعبير لديه، وإضافة إلى ذلك فإنه منشأ الفصاحة، ومكمن جماليتها؛ وذلك ((لأن المواضعة كالإشارة، فكما أنك إذا قلت: خذ ذاك، لم تكن هذه الإشارة لتعرف السامع المشار إليه في نفسه، ولكن ليعلم أنه المقصود من بين سائر الأشياء التي تراها وتبصرها؛ كذلك حكم اللفظ مع ما وضع له.))[5] فإذا لم يتم تحديد دلالة كلمة أو إسناد معين حسب الاستعمال المألوف فإن الحالة تحتمل أكثر من مسوغ واحد، ويكون لكل مسوغ قرينة تدل عليه فيتسع بذلك نطاق التعبير فكأن الإشارة قد وجهت إلى الأشياء كلها.

5. يذكر القاضي عبد الجبار (415هـ) أهمية الدافع النفسي للأديب لحمله على التكلم بكلام فصيح، ويذكر من ذلك حال الحرب حيث تحرك من طبعه في الفصاحة ما يتمكن معه من الكلام الفصيح مما لولا الحرب لم يتأت له ذلك.[6] وأكد ذلك المعنى السيوطي (911هـ) بقوله: ((والإنسان

---

[1] ) المغني في أبواب التوحيد والعدل، القاضي عبد الجبار (415هـ): 16 / 197
[2] ) المدخل إلى علوم القرآن الكريم، محمد فاروق النبهان: 240
[3] ) المغني في أبواب التوحيد والعدل، القاضي عبد الجبار (415هـ): 16 / 197 – 198 – 199
[4] ) المصدر نفسه: 16 / 201
[5] ) في الميزان الجديد، محمد مندور (1385هـ): 149
[6] ) المغني في أبواب التوحيد والعدل، القاضي عبد الجبار (415هـ): 16 / 277

تختلف أحواله فتسعده الفصاحة عند انبساط الطبع وفرحه، وتتعذر عليه عند الانقباض.))[1] ويمكن العزم على خلاف الشق الثاني من كلام السيوطي؛ حيث إن الانقباض النفسي والحزن قد يكون عنصرا فعالا لانفجار الطاقات التعبيرية الكامنة في نفس المفجوع؛ بدرجة لولا هذه الأزمة النفسية لما تسنى للأديب أن يخرج ما في ضميره من الكلام الفصيح. وكذلك الحال بخصوص المتلقي؛ إذ يتوجب على المتحدث أن يكون على دراية بالحالة النفسية لدى المتلقي وذلك لإنجاح العملية التواصلية، ولتحقيق عنصري التأثير والتأثر، وذلك بـ ((أن يعرف الأحوال العاطفية لمستمعيه، من غضب ورحمة وخوف، وما يصحبها من لذة وألم حسب الأعمار والطبقات، حتى يمكنه الوصول إلى قناعاتهم.))[2]

6. ويشترط القاضي عبد الجبار (415هـ) أمرًا مهمًّا في الفصاحة، هو العلم بأفراد الكلمات وطريقة تركيبِها ووضعها في الكلام، وجعل هذا لازما لمن يروم ممارسة الكلام الفصيح، ويشير إلى أن التفاضل في الفصاحة لدى ممارسيها مرهون به، وهو ((أن يعلم أفراد الكلمات، وكيفية ضمها، وتركيبها، ومواقعها، فبحسب هذه العلوم والتفاضل فيها، يتفاضل ما يصح منهم من رتب الكلام الفصيح.))[3] وذلك لأن الكلام ((من الأفعال المحكية كالبناء، والنساجة، والصياغة، فإذا لم يؤثر في صحة ذلك إلا العلم الذي يفارق به من يتعذر عليه ذلك، فكذلك القول في الكلام.))[4] وفي هذا إشارة إشارة إلى أن الفصاحة من شأنها أن تكون مكتسبة، يحصلها المرء بالتمرن كما هو الحال بخصوص هذه العلوم المذكورة. لكن عبد القاهر الجرجاني (471هـ) لم يوافق القاضي عبد الجبار حول نظرته هذه في الفصاحة، و رأى أن هذا القول منه في تعريف الفصاحة لو كان كافياً في معرفتها لكفى مثله في معرفة الصناعات كلها، فكان يكفي – في معرفة نسج الديباج الكثير التصاوير – أن تعلم: أنه ترتيب للغزل على وجه مخصوص، وضم لطاقات الإبريسم، بعضها إلى بعض على طرق شتى، وهذا بعيد عن الصواب.[5] ولكن نجد أن القاضي عبد الجبار لم يشترط مجرد ضم الكلمات بعضها مع بعض، بل جعل لذلك ضوابط، إذ لا بد مع الضم أن تكون لكل كلمة صفة تتصف فيها ثلاثة أمور:

**1ـ المواضعة:** أن تكون صفة الكلمة بالمواضعة التي تتناول الضم.

**2ـ الموقع:** ويتمثل ذلك في التقديم والتأخير، بحيث تقدم لفظة على أخرى لغرض ما.

---

[1] ) معترك الأقران، السيوطي (911هـ): 1/ 9

[2] ) في بلاغة الخطاب الإقناعي، د. محمد العمري: 31

[3] ) المغني في أبواب التوحيد والعدل، القاضي عبد الجبار (415هـ): 16/ 208

[4] ) المصدر نفسه: 207

[5] ) دلائل الإعجاز، الجرجاني (471هـ): 1/ 238 ، دلائل الإعجاز بين أبي سعيد السيرافي والجرجاني، حسن بن إسماعيل الجناجي (1429هـ): 153

**3ـ حركة الإعراب:** فلا يمتنع في اللفظة الواحدة أن تكون إذا استعملت في حركة أفصح منها إذا استعملت في غيرها. وليس لهذه الأقسام الثلاثة رابع؛ لأنه إما أن تعتبر فيه (الكلمة)، أو (حركاتها)، أو (موقعها) ولا بد في الكلام اللذي يكون أفصح من غيره أن يكون إنما زاد عليه بكل ذلك، أو ببعضه.[1]

**المحور الأول: التلاؤم والتنافر بين علماء الإعجاز وعلماء البلاغة:**

بحث علماء الإعجاز وعلماء البلاغة قضيّة التّلاؤم والتّنافر في فصاحة الكلمة المفردة وفي الكلام، باعتبار انّ بلاغة الكلام مبنيةٌ على فصاحة الكلمة والكلام، ووضعوا لمفهوم الانسجام اللفظي والصوتي مع مناسبة اللفظ للمعنى مصطلح التّلاؤم ولضدِّه مصطلح التّنافر، ويمكن أن نوضّح مجاري البحث بين الفريقينِ في ما يأتي:

**1ـ تنافر الحروف:** عبَّر علماء الإعجاز عن عدم ائتلاف حروف الكلمة فيما بينها، أو عدم ائتلاف الكلمات في الكلام بالتّنافر، ومن شروط فصاحة المفرد ألا تكون حروف الكلمة متنافرة، ذكر الرماني (384هـ) سبب التنافر في حروف الكلمة الواحدة وأشار إلى أنه يرجع إلى التفاوت في مخارج الحروف، ويعتمد الرماني (384هـ) في ذلك على كلام الخليل بن أحمد حيث يرى أن السبب في التنافر هو البعد الشديد أو القرب الشديد؛ لأن القرب والبعد بين مخارج الحروف بمنزلة رفع اللسان ورده إلى مكانه، وكلاهما صعب على اللسان، والسهولة من ذلك في الاعتدال، ولذلك وقع في الكلام الإدغام والإبدال.[2] وهذا مما يدل على أن مراد الرماني (384هـ) بالتنافر، تنافر الحروف في كلمة واحدة؛ لأن الإدغام والإبدال مما يبحثان في علم التصريف.

وأفاد الباقلاني (403هـ) من كلام الرماني (384هـ) عند حديثه عن التلاؤم فأشار إلى أثر القرب والبعد الشديدين، وعلاقتهما بفصاحة الكلمة: ((وإذا قرب جدا كان بمنزلة مشى المقيد، ويبين بقرب مخارج الحروف وتباعدها.))[3]

وأشار الباقلاني (403هـ) إلى التلاؤم من خلال حديثه عن كل من الحروف العربية التي بني عليها الكلام، والسور التي افتتحت بذكر الحروف، فبعدما أتى بشيء من صفات الحروف ذكر قول الله تعالى (الم) وذكر من تلاؤم هذه الأحرف الثلاثة: ((الألف المبدوء بها هي أقصاها مطلعاً، واللام متوسطة، والميم متطرفة، لأنها تأخذ في الشفة. فنبه بذكرها على غيرها من الحروف، وبين أنه إنما أتاهم بكلام منظوم مما يتعارفون من الحروف التي تتردد بين هذين الطرفين.))[4] يدل ذلك على أن

---

[1] ) المغني في أبواب التوحيد والعدل، القاضي عبد الجبار (415هـ): 16/ 199 – 200
[2] ) النكت في إعجاز القرآن، الرماني (384هـ): 96
[3] ) المصدر نفسه: 270
[4] ) إعجاز القرآن، الباقلاني (403هـ): 46

حروف الكلمة إضافة إلى كونها سهلة، فإن ترتيبها قد يحمل معنى كما في الحروف المقطعة التي تبتدأ بها في بعض سور القرآن.

وقد مثّل هذا البحث عند الرماني (384هـ) والباقلاني (403هـ) مسارًا في البحث البلاغي بعد ذلك، فبحث البهاء السبكي هذه القضية، ونقل خلافًا فيها وأشار إلى أنّ علماء البلاغة أفادوا بأن التنافر يكون إما لتباعد الحروف تباعدا مفرطا، أو لتقاربها، فإنها كالطفرة فيما تكون فيه الحروف متباعدة، والمشى فى القيد فيما تكون فيه الحروف متقاربة، ونُقِد هذا القول بحجة أنَّ بعض الكلمات مثل: الشجر والجيش والفم متقاربة الحروف وهي فصيحة، فأجاب بأنَّ اختراَم المدّعى ببعض الكلمات لا يخرم القاعدة، لأنَّ العبرة في مثل هذا بالغالب المشهور لا بالقليل النادر.[1]

**2ـ تنافر الكلمات:** وقد سبق علماء الإعجاز إلى ذكر ذلك، حيث أن البلاغيين القدماء قد مثلوا بالمثال نفسه الذي ضربه علماء الإعجاز لتنافر الكلمات، كما هو موضح عند الرماني (384هـ) ، إذ خص بابا للحديث عن التلاؤم الذي بمراعاته تسلم المفردة من التنافر[2]. وقد تأثر الرماني (384هـ) في عقد هذا الباب بما وجد لدى الجاحظ، حيث رأى الأخير أن الفصاحة تقتضي عدم تنافر الكلمات ضمن الجملة الواحدة. وإذا تنافرت الألفاظ صعب النطق بها، وبدت غير متلائمة وغير متوافقة، ومثل له الجاحظ بمثال شعري في الرجز وذكر بأنه من قول الجن، وأورده بعده الرماني (384هـ) فتبعه في ذلك علماء البلاغة:

**وقَبرُ حَربٍ بمكانٍ قَفرٍ وليسَ قُربَ قَبرِ حَربٍ قَبرُ**[3]

درس الرماني (384هـ) في حديثه عن التلاؤم الأسباب التي تؤدي إلى سهولة الكلام وفصاحته ليبين محاسن البلاغة والتعبير القرآني، ويستنتج من ذلك أن الرماني (384هـ) بحث القضايا الإيجابية من الفنون البلاغية، ومن ضمنه يوحي إلى ضرورة الاحتراز من التنافر بين الكلمات. وإلى ذلك ذهب الخطابي (388هـ) بعدما ذم كثرة إيراد الغريب والوحشي من الكلمات، وذلك في سياق رده على الطاعنين في القرآن بزعم قلة ورود الكلمات الغريبة فيه، فقال عن النظم القرآني: ((هو الذي جمع البلاغة والفخامة إلى العذوبة والسهولة.))[4] فاشترط السهولة التي هي ضد

---

[1] ) عروس الأفراح، بهاء الدين السبكي (773هـ): 1/ 60

[2] ) النكت في إعجاز القرآن، الرماني (384هـ): 94 – 97

[3] ) البيان والتبيين، الجاحظ (255هـ): 1/ 74 ، الحيوان، الجاحظ (255هـ): 6/ 423 ، دلائل الإعجاز بين أبي سعيد السيرافي والجرجاني، حسن بن إسماعيل الجناجيُ (1429هـ): 31

[4] ) بيان إعجاز القرآن ، الخطابي (388هـ): 37

التنافر، وذكرها في مقابل (الفخافة)، إذ أن الكلام الذي يتسم بالفخامة لا بد له من التحلي بالسهولة وإلا لم يكن مقبولا.

ونجد بإزاء الرماني (384هـ) أن الباقلاني (403هـ) يشير إلى تنافر الحروف بشكل صريح، واشترط في الكلمة سهولتها على اللسان، وذلك في قوله: ((قد يختار قوم ما يغمض معناه، ويغرب لفظه، ولا يختار ما سهل على اللسان، وسبق إلى البيان.))[1] فإنه عاب اختيار الألفاظ العويصة ـ في الكلام ـ التي يستعصي النطق بها. وبهذا يعرف أن الباقلاني (403هـ) يدرس القضايا السلبية في البلاغة خلافا للرماني الذي سلك طريق ذكر المحاسن من الإيجاز، والتلاؤم، والمبالغة، وغيرها. ونجد أن عبد القاهر الجرجاني له نظرة أوسع' وذهب إلى أن التنافر والتلاؤم في الكلمات ليست على درجة واحدة؛ لأن ((منه ما يكون فيه بعض الكلفة على اللسان، إلا أنه لا يبلغ أن يعاب به صاحبه ويشهر أمره ... وأن الصفاء أيضا يكون على مراتب يعلو بعضها بعضا، وأن له غاية إذا انتهى إليها كان الإعجاز.))[2] وهذا ما تقرر لدى علماء البلاغة حيث يرون في التنافر: أن تكون الكلمة بسببه ثقيلا على اللسان ويعسر النطق بها، كما روي أن أعرابيا سئل عن ناقته، فقال: (تركتها ترعى الهعخع).[3]

**ذكر الرماني (384هـ) أن التلاؤم تعديل الحروف في التأليف، والتأليف عنده على ثلاثة أوجه:**

**1ـ التأليف المتنافر:** كقول الشاعر:

**وقبر حرب بمكان قفر وليس قرب قبر حرب قبر**[4]

وذكروا أن هذا من أشعار الجن لأنه لا يتهيأ لأحد أن ينشده ثلاث مرات ولا يتتعتع، والسبب في ذلك ما ذكرنا من تنافر الحروف. وهذا البيت المذكور لدى الرماني (384هـ) أصبح فيما بعد عمدة في باب الفصاحة في الكتب البلاغية.

**2ـ التأليف المتلائم في الطبقة الوسطى:** كقول الشاعر:

**رَمتني وستْرُ الله بيني وبينها عشيةَ آرام الكناس رميم**
**رميمُ التي قالت لجيران بيتها ضمنت لكم ألا يزال يهيم**
**ألا رب يوم لو رمتني رميتها ولكن عهدي بالنضال قديم**[5]

---

[1] ) إعجاز القرآن، الباقلاني (403هـ): 114
[2] ) دلائل الإعجاز، عبد القاهر الجرجاني (471هـ): 58
[3] ) الإيضاح في علوم البلاغة، الخطيب القزويني (739هـ) : 1/ 22
[4] ) البيان والتبيين، الجاحظ (255هـ): 1/ 16
[5] ) شعر أبي حية النميري (180هـ): 172 – 173

**3ـ المتلائم في الطبقة العليا:** فهو كالقرآن كله، وذلك بين لمن تأمله. والفرق بينه وبين غيره من الكلام في تلاؤم الحروف على نحو الفرق بين المتنافر والمتلائم في الطبقة الوسطى.[1]

فبين أن الطبقة الأولى من التأليف خارج عن حد البلاغة، والثانية تتأتى لمن حظي بقسط وافر من الفصاحة، وهي طبقة البلغاء، أما الطبقة الثالثة فلا يقدر على مثله أحد، فهي طبقة القرآن خاصة، وإنما فضل الطبقة الثالثة وجعلها معجزة لأن مدار الحسن والقبح في كل طبقة على قدر تلاؤم الحروف وتقاربها فهذه الأمور عند الطبقة الثالثة في أتم أحوالها. وذلك إذا تحلت هذه الطبقة بالفوائد المنشودة في التلاؤم التي هي: ((حسن الكلام في السمع، وسهولته في اللفظ، وتقبل المعنى له في النفس، ومثل ذلك مثل قراءة الكتاب في أحسن ما يكون من الخط والحروف، وقراءته في أقبح ما يكون من الحرف والخط، فذلك متفاوت في الصورة وإن كانت المعاني واحدة.))[2] وبناء على ذلك يجب في التلاؤم أولا أن يكون مقبولا من حيث آلتي التواصل، وهما (السمع، والنطق)، وإلى ذلك أشار بقوله: حسنه في السمع وسهولته في اللفظ، وأن يحمل ذلك في طياته معنى بديعا. وكل هذه الأمور متوفرة وفي أرقى مستوياتها في النظم القرآني. والعمدة للوقوف على هذا التباين في الفصاحة بين أجناس الكلام الحس أو الذوق السليم.

وأشار القاضي عبد الجبار (415هـ) إلى أن سلامة الكلام من التنافر تتسبب في حسن النظم، وعذوبة القول اللذَين يزيدان الكلام حسنا على السمع، ولا يشترط أن يكون الكلام أفصح من حيث المعنى وما يحتويه من المجاز أو الحقيقة، وإنما العبرة بنغم الكلام وعذوبته في السمع.[3] وهذا النغم في الكلام لا يتأتى لكلمة يتيمة معزولة، إلا أن تكون في سياق يُحسن معاشرتها بالمعروف، ويثبت الجرجاني حقيقة ذلك مستفهما منكرا: ((وهل تجد أحدا يقول: هذه اللفظة فصيحة إلا وهو يعتبر مكانها من النظم، وحسن ملائمة معناها لمعاني جاراتها، وفضل مؤانستها لأخواتها؟))[4]

لم يكتف الرماني (384هـ) باشتراط الفصاحة اللفظية فحسب، بل ذكر وجوب إضافة شيء آخر وهو كون المعنى بديعا وأخاذا، حيث قال: ((فإذا انضاف إلى ذلك حسن البيان في صحة البرهان في أعلى الطبقات.))[5] وذهب الرماني (384هـ) إلى أنه يمكن تلمس الإعجاز في التلاؤم لدى من كان أهلا للوقوف على الكلام الفصيح، وذلك بعد تحقق ما اشترطه، فإذا تحققت ضوابط التلاؤم فقد ((ظهر الإعجاز للجيد الطباع البصير بجواهر الكلام، كما يظهر له أعلى طبقات الشعر

---

[1] ) النكت في إعجاز القرآن، الرماني (384هـ): 94 – 95
[2] ) شعر أبي حية النميري (180هـ): 96
[3] ) المغني في أبواب التوحيد والعدل، القاضي عبد الجبار (415هـ): 200
[4] ) دلائل الإعجاز، عبد القاهر الجرجاني (471هـ): 44
[5] ) النكت في إعجاز القرآن، الرماني (384هـ): 96

من أدناها إذا تفاوت ما بينهما.))[1] وقد نادى بذلك الجرجاني أيضا في معرض حديثه عن التلاؤم حيث سمى مذهب من يرى وقوع الإعجاز في التلاؤم اللفظي وحده متعسفا وصاحب شبهة، وأشاد بمكانة المعنى الحسن، وأبى أن يكون ههنا نظم للألفاظ وترتيب لا على نسق المعاني، ولا على وجه يقصد به الفائدة، ثم يكون مع ذلك معجزا، فهذا الرأي يكون غاية في الفساد.[2] وتابع السكاكي الجرجاني في ذلك وأيده.[3]

وأُنتُقد الرماني (384هـ) في حديثه عن التلاؤم بأنه لم يكن واثقا من نفسه عند الحديث عنه وذلك بحجة أنه لم يذكر له مثالا من القرآن. ((نجد حديثه في التلاؤم عاماً لا تطبيق فيه.))[4] ويجاب عن ذلك من وجهين:

**1ـ عمومية كلام الرماني (384هـ)** : يمكن القول بأن تعريفه للتلاؤم كان عاما إلى حد ما، حيث عرفه بأنه تعديل الحروف، ولم يذكر ماهية ذلك التعديل؛ لكن إذا أمعنا النظر نجد بأنه قد بين المراد من ذلك بذكر ضده إذ أشار إلى التنافر وذكر سببه. فما نجى من التنافر فهو من قبيل التلاؤم.

**2ـ إيراد المثال التطبيقي:** الحق أن الرماني (384هـ) ذكر المثال التطبيقي للتنافر، ونجد أنه في تقسيمه التنافر إلى ثلاثة أقسام أتى بالمثال الشعري للقسم الأول والثاني، أما القسم الثالث فأشار إلى أن القرآن كله من هذا القسم. ((المتلائم في الطبقة العليا القرآن كله.))[5] وكان ذلك بمثابة بمثابة ذكر القرآن كله كمثال لهذا النوع.

وهذا المفهوم للتلاؤم والتنافر لدى علماء الإعجاز يتطابق مع ما عند البلاغيين حيث إن التنافر عندهم: هو أن تكون الكلمات بسببه في غاية الثقل على اللسان بحيث يعسر النطق بها متتابعة.[6]

**المحور الثاني: الغرابة في اللفظ بين علماء الإعجاز وعلماء البلاغة:**

ظهرت إشكاليّة استعمال اللفظ الغريب في الكلام عندَ علماء الإعجاز حينما طعن الطّاعنون في بلاغة القرآن بقلة تضمّنه ألفاظًا غريبة، فبحث علماء الإعجاز قضية غرابة اللفظ في الاستعمال بوصفها قضية ينبني عليها إعجاز القرآن، فقرّروا أربعة مسائل كانت أساسًا في البحث البلاغي فيما بعد، وهي:

---

[1] ) النكت في إعجاز القرآن، الرماني (384هـ): 96
[2] ) دلائل الإعجاز، عبد القاهر الجرجاني (471هـ): 59 – 60
[3] ) مفتاح العلوم، السكاكي (626هـ): 416
[4] ) تأريخ النقد الأدبي عند العرب، إحسان عباس (2003م): 341
[5] ) النكت في إعجاز القرآن، الرماني (384هـ): 95
[6] ) الإيضاح في علوم البلاغة، الخطيب القزويني (739هـ): 1/ 30

1. الغرابة في دلالة اللفظ من عيوب الفصاحة، وجعلوا هذا الأمرَ أصلًا من أصول البلاغة، وقد تقرَّر هذا الأصل عندَ علماء البلاغة وصار أصلًا غيرَ قابلٍ للتّغيير في فهم البلاغة أو أدائِها.

2. ليس من شروط بلاغة الكلام أن يتضمّن الألفاظ الغريبة، فالكلام البليغ سهل سبيله، خارج عن الوحشي المستكره، والغريب المستنكر، وعن الصنعة المتكلفة، وهو قريبٌ إلى الإفهام، يبادر معناه لفظه إلى القلب، ويسابق المغزى منه عبارته إلى النفس.[1]

3. إنَّما يكثر وحشيُّ الغريب في كلام الأوحاش من الناس، والأجلاف من جفاة العرب، ولا يعرفون تقطيع الكلام وتنزيله والتخير له، وليس ذلك معدودًا في النَّوع الأفضل من أنواع الكلامِ؛ ولهذا لم تكن أشعار العرب كلُّها على مستوى واحد في البلاغة أو في مراتب متقدِّمة في البلاغة، لتضمّنها الوحشيَّ الغريب المستنكر، واللفظة العربية المهملة المستكرهة.[2]

4. المعوّل على أفصح الألفاظ هو في ما جاء به القرآن المجيد، وإنَّما المختار من بلاغة الكلام النمط الأقصد الذي جاء به القرآن[3]، وأما ما نجده من الكلمات الغريبة في القرآن كقوله تعالى: ﴿ئې ۈ ۈ ۇ ۆ ۆ ئى﴾ [4] فإنَّه ليس من هذا الباب؛ لأن السياقات التي وردت فيها هذه الكلمات، ومقاماتها تقتضي مثل هذه الألفاظ، وهي ليست وحشية نافرة في مسامع المخاطبين، وكان البلاغيون أعقل من أن يضعوا أصلا للفصاحة يخرجون به آيات من القرآن من حيز الفصاحة.[5] وقد ألفوا في معاني هذه الكلمات مؤلفات وأطلقوا عليها اسم (الغريب)، مثل (غريب القرآن) لابن قتيبة (276هـ)، (غريب القرآن) للسجستاني (330هـ)، (المفردات في غريب القرآن) للأصفهاني (502هـ)، و(التبيان في تفسير غريب القرآن) لابن الهائم (815هـ).

**التّفريق بين اللفظ الغريب والمعنى الغريب:**

بين الباقلاني (403هـ) أن الكلام موضوع للإبانة عن الأغراض التي في النفوس، فالوظيفة الأساسية للبلاغة هي: ألا يكون الكلام منغلقا بحيث لا يفهم؛ لأن الفهم بمثابة الخطوة الأولى للتعامل مع الرسالة الكلامية، وإذا كان ذلك كذلك وجب أن يتخير من اللفظ ما كان أقرب إلى الدلالة على المراد وأوضح في الإبانة على قصد المتكلِّم، ولم يكن مستكرها على الأذن والنفس، حتى يتأبَّى بغرابته في اللفظ عن الإفهام، أو يمتنع بتشويش معناه عن الإبانة[6]، فالغرابة الخارجة عن حدِّ الفصاحة التي حدّدها علماء الإعجاز تكون في أمرين:

[1] ) إعجاز القرآن، الباقلاني (403هـ): 46
[2] ) المصدر نفسه: 171
[3] ) بيان إعجاز القرآن، الخطابي (388هـ): 37
[4] ) النجم: 22
[5] ) خصائص التراكيب، محمد أبو موسى: 65 ـ 67
[6] ) إعجاز القرآن، الباقلاني (403هـ): 117

إحداهما: أن تكون الغرابة في دلالة اللفظ على المعنى، بأن لا تفهم دلالته ولا يعرف معناه، لشدّة غرابته، بحيث لا يمكن فهم معناه إلّا بالرجوع إلى مصنفات اللغة المستوعبة وعندَ التّدقيق في كتب اللغة وغريبِها، كما في لفظ (تكأكأتم) الذي مثّل به علماء البلاغة فيما بعد، وهو ما عبَّر عنه الباقلاني (403هـ) بقولِه: ((يتأبَّى بغرابته في اللفظ عن الإفهام)).[1]

الثانية: أن تكون اللفظة واضحة في دلالتها من حيث العموم، لكنَّها غير واضحة في إبانتِها عن المعنى الذي يقصده المتكلِّم، وهو ما عبرَّ عنه الباقلاني (403هـ)، بقولِه: ((يمتنع بتعويص معناه عن الإبانة)).[2]

وقد شكلت هاتان المسألتان في بيان مفهوم غرابة اللفظ مسارًا بحثيا عند علماء البلاغة حينما جعلوا غرابة اللفظة المفردة على وجهين: أحدهما أن تكون الكلمة وحشية لا يظهر معناها، فيحتاج في معرفته إلى أن ينقر عنها في كتب اللغة المبسوطة، مثل لفظ: تكأكأتم وافرنقعوا. في قول عيسى بن عمر النّحوي حين سقط عن حماره، واجتمع عليه الناس فقال: ما لكم تكأكأتم علي تكأكؤكم على ذي جنة افرنقعوا عني. أي: اجتمعتم تنحوا. والوجه الثاني: عدم ظهور المعنى الذي يقصده المتكلِّم، فيُحتاج إلى الإبانة عن المعنى لصعوبة معرفة المرادِ منه[3] كما في ذكرهم قول العجاج في أرجوزته مثالا لهذا النوع:

**ومقلةً وحاجبًا مُزجَّجا وفاحِما ومَرْسِنا مُسَرَّجا.**[4]

فإنه لم يعرف ما أراد بقوله: (مسرجًا)، حتى اختلف في تخريجه: فقيل هو من قولهم للسيوف: سريجية، أي منسوبة إلى قين، يقال له: سريج. يريد أنه في الاستواء والدقة كالسيف السريجي، وقيل: من السراج، يريد أنه في البريق كالسراج، وهذا يقرب من قولهم: سرج وجهه. أي: حسن. وسرج الله وجهه. أي: بهجه وحسنه.[5] ولا شك أن اللفظة إذا دلت على أكثر من معنى واحد، واحد، واختلف في تحديد المعنى المراد منها في موضعها فإنها تكتسب بذلك صفة الغرابة التي تنتقص من درجة فصاحتها.[6]

أما المعنى الغريب الذي لم يسبق إليه فيستخرجه الأديب، فإنه من نقاط القوة في الكلام، ومن دواعي تقديم نظم على نظم آخر؛[7] لأن شأن المعاني أوسع بكثير من الألفاظ، فالألفاظ توقيفية لا

---

[1] ) المصدر نفسه والصفحة نفسها.
[2] ) المصدر نفسه والصفحة نفسها.
[3] ) الإيضاح في علوم البلاغة، الخطيب القزويني (739هـ): 1/ 25
[4] ) ديوان العجاج: 330
[5] ) ديوان العجاج: 330
[6] ) علم المعاني، عبد العزيز عتيق (1396هـ): 19
[7] ) الرسالة الشافية، الجرجاني (471هـ): 133

يمكن إحداثها دون اتفاق أبناء اللغة عليها، وإضافة إلى ذلك فإنها تحتاج إلى وقت طويل حتى تحتل مكانها وتكون مقبولةً في الاستعمال لدى الجميع، أمَّا المعاني فإنَها تتولد مع تجدد هواجس النفس، وتفاعل المتحدث مع البيئة أو الأشخاص المحيطين به، فكلما تغير حال المتحدث، أوتغيَّرت بيئته، أو تجدَّد زمنه الذي يعيش فيه، تتغيَّر المعاني لتكون أنسب وأحرى وأوفق بالحال .

**ضوابط الغرابة المحمودة عندَ علماء الإعجاز:**

وضع علماء الإعجاز ضوابط للكلمة التي تكون غرابتها محمودة في الاستعمال؛ ليبينوا من خلالها الفصيح من الغريب المذموم؛ لأنَّ معرفة الشّيء إنّما يتمُّ بمعرفة مقابلِه وما هو ضدُّه أو نقيضُه، كما أنَّهم بهذا الأمر مهّدوا لفهم سبب إيراد القرآن المجيد للألفاظ الغريبة في نظمِه، ويمكن إيجاز هذه الضوابط فيما يأتي:

**1ـ إذا استعملت الكلمة الغريبة في المجاز:**

لم يجعل الباقلاني (403هـ) الغرابة مذمومةً على الإطلاق، بل ذكر أنها قد تكون من مظاهر الفصاحة، وذلك عندما تكون الكلمة قد استعملت في غير ما وضعت له، وأشار إلى ذلك خلال حديثه عن البلاغة القرآنية، وقال: ((ومنها أنه ليس للعرب كلام مشتمل على هذه الفصاحة والغرابة، والتصرف البديع، والمعاني اللطيفة ... على هذا الطول، وعلى هذا القدر.))[1] وعطفه الغرابة على الفصاحة يدل على أنها مستحسنةٌ في بعض المواضع وفي ظروف كلامية محدّدة ومما يزيد بها الكلام بهاء وقبولا.

**2ـ موضع غرابة اللفظ في القرآن في استعاراته:**

أشار عبد القاهر الجرجاني (471هـ) إلى استعمال اللفظ الغريب في القرآن، وذلك مع إقراره بقلة ورود الكلمات الغريبة في القرآن، إلا أنه أشار إلى موطن الغرابة في النّظم القرآني وذلك عند حديثه عن بلاغة وجه الشبه، حيث قال: ((ما جمعه العلماء في غريب القرآن؛ فترى الغريب منه إلا في القليل، إنما كان غريبا من أجل استعارة هي فيه.))[2] فالقرآن المجيد يستعمل اللفظة الغريبة في موضعِ الاستعارة لتكون الاستعارة أبهى حلَّة وصورةً، وأقوى حجة، وأوفق دلالة على المعنى، وهذا الاستعمال للفظة الغريبة في اللسان العربي هو الاستعمال الرصين للفظة، وهو ما عناه النقاد والبلاغيون القدماء في حديثهم عن الغرابة، ففاعلية التشبيه المتّصف بالغرابة مثلا في ابتكار المعنى المؤثر، والدلالة الإيحائية تتجسد في ذلك، وكلَّما كانت الاستعارة غريبةً كانت أبلغ، والغرابة لا تأتي

[1] ) إعجاز القرآن، الباقلاني (403هـ): 36
[2] ) دلائل الإعجاز، الجرجاني (471هـ): 397

من الصورة التخييليَّة دون اعتبار لدلالة اللفظة الغريبة في المعنى، فجاء الاسلوب القرآني على وفق أساليب العرب في الاستعارات، فالتشبيه المؤثِّر يقترن بالجانب التخييلي من الشّعر، ومرد ذلك إلى أن العملية التّخييلية التي تعتبر جوهر الإبداع الشّعري، وهذا لا تكتمل إذا سلك الشّاعر مسلك السذاجة في الكلام.[1]

**3ـ الغرابة بسبب مقابلة اللفظ للاستعمال الشَّائع:**

يمكن تلمس استعمال آخر للغرابة لدى علماء الإعجاز، فقد ألمح الخطابي إلى الغرابة بحيث تكون مقابل الاستعمال الشائع، وهذا الاستعمال لا يكون مذموما من حيث الفصاحة، وذكر ذلك عندما قارن بين لفظتي (الافتراس)، و(الأكل) في سياق حديثه عن قوله تعالى: **ئي ج چ چ ئى**[2] وبين من خلال ذلك أن اللفظة الغريبة التي هي مقابل الاستعمال الشائع تعد من مظاهر الفصاحة، وأن هذه الغرابة لا تكون سمة جمال على الإطلاق، بل الحاكم في ذلك السياق، ولذلك قدم (الأكل)، على (الافتراس) لأن السياق قد دعا إلى ذلك.[3] وذكر هذا الاستعمال ابن أبي الأصبع في تعليق له على قصيدة لزهير بن أبي سلمى حيث قال: ((البيت الأول من ألفاظ تدل على معنى عربي لكن المعنى غير غريب، ركبه من ألفاظ متوسطة بين الغرابة والاستعمال.))[4] أي: بين الألفاظ التي لا تتأتى إلا للخاصة، والألفاظ التي تسري على ألسنة العامة.

**4ـ الغرابة تنشأ من قلَّة الاستعمال في دائرة الكلام العادي:**

هذه المسألة لازمة للمسألة السابقة، وذكرناها على حدة لأهميتها في فهم سبب وضع مصنفات غريب اللغة، فاللفظ الغريب المذموم في الاستعمال ليس قائمًا على مدى عدم فهم دلالتِه عند عمومِ النّاس، لأنَّ الكلام من حيث مستوياته البلاغية طبقات ومراتب في استعمال الألفاظ المنتقاة، وفي استعمال الأساليب الكلامية المتخيَّرة، ولهذا استقرَّ البحث البلاغي على أنه ينبغى أن يحمل أيُّ لفظٍ على الغرابة بالنِّسبة إلى العرب العرباء، الذين أخذت اللغة منهم، لا بالنسبة إلى استعمال عمومِ الناس، ولو كان المراد ما كان غريبًا في الاستعمال الشائع لكان جميع ما فى كتب الغريب غيرَ فصيح، مع القطع بخلافه، فالمراد بالغرابة قلَّة استعمال هذه الألفاظ في الكلامِ العادي[5] فبين أن مناط ورود الغرابة بهذا المعنى متوقف على حجم دائرة الاستعمال اللغوي، فالألفاظ التي يقل طرقها للأسماع تكون أدعى لانبعاث عنصر التأثر لدى المتلقي.

---

[1] ) الغرابة وشعرية المعنى المبتكر في النقد القديم، د. نسيبة العرفي: 334 مجلة اللغة العربية، العدد 43، المجلد: 21 ، السنة: 2019م

[2] ) يوسف: 17

[3] ) بيان إعجاز القرآن، الخطابي (388هـ): 41

[4] ) تحرير التحبير، ابن أبي إصبع المصري (654): 195

[5] ) عروس الأفراح، بهاء الدين السبكي (773 هـ): 61/1

ولمّا استقر مفهوم الغرابة في اللفظ عند علماء الإعجاز على أن من الألفاظ الغريبة ما هو محمود وما هو مذموم، وأخرج علماء الإعجاز الألفاظ البليغة من حد المذموم، واتضح مفهوم اللّفظ الغريب المذموم، أفاد علماء البلاغة من هذه المفاهيم ووظّفوها في مفهوم فصاحة الكلمة، فاشترطوا في مفهوم الكلمة الفصيحة أن ((لا تكون غريبة وحشية تستكره لكونها غير مألوفة ولا مما تشتبه معانيها وتستغلق فيصعب الوقوف عليها وتشمئز عنها النفس.))[1] وذلك مثل لفظتي تكأكأتم وافرنقعوا كما تقدَّم.[2]

**المحو الثالث: عيوب الفصاحة بين علماء الإعجاز وعلماء البلاغة:**

لمّا كان الكلام في عيب من عيوب اللغة كان لابدَّ من ربط هذا المفهوم بقوانين اللغة التي تقوم على مراعاة قوانين النّحو والصَّرف، فإن مفهوم العيب اللغوي يقوم على أمرين أحدهما مخالفة قوانين اللغة، ويعنى به مخالفة الصحّة اللغوية والثاني ما يقتضيه من نقصٍ في بلاغة الكلام، فيكون مخالفًا للذّوق اللغوي والبلاغي، والأمر الأول يدرك بمعرفة قواعد النّحو والصّرف والثّاني يدرك بمزاولة البلاغة والمران فيها. وقد أوجز علماء البلاغة على سبيل الضّبط والحصر عيوب فصاحة الكلام فيما يأتي:

**1ـ مخالفة القياس:** نستطيع أن نمثل لمخالفة القياس الصرفي في مصنفات إعجاز القرآن بما وجد عند الخطابي (388هـ) ، وذلك عندما أبطل دعوى هؤلاء الذين يزعمون وجود مخالفة القياس الصرفي في القرآن، وفي قوله تعالى: **ﭼ ﭽ ﭾﭿ ﮀ ﮁ ﮂ ﮃ** [3] فبين الخطابي أن ما ذهبوا إليه من عدم استقامة (كيل) في هذه الآية، وأنه لا يوصف باليسير أو العسير فغير صحيح؛ لأن معنى الكيل هنا: المكيل، وهو مقرون بذكر البعير، والمصادر توضع موضع الأسماء كقولهم: (هذا درهم ضرب الأمير) و(هذا ثوب نسج اليمن) أي: مضروب الأمير، ونسيج اليمن، والمعنى أنا نزداد من الميرة المكيلة إذا صحبنا أخونا في هذا السفر.[4] وتحمل الآية المباركة على معنى آخر، وهو: ذلك كيل قليل، يعني: ما حملناه من البر قليل لا يكفينا وأهلنا، فأرسل معنا أخانا نكتل ليكثر ما نحمله من الطعام.[5] وليس هناك فرق من حيث الجانب الصرفي بين المعنيين إذ أن كلمة (يسير) تؤول إلى كلا المعنيين. ومخالفة القياس عند علماء البلاغة: أن تكون الكلمة على خلاف قانون مفردات الألفاظ الموضوعة في الصرف.[6]

[1] ) مفتاح العلوم، السكاكي (626هـ): 338
[2] ) الإيضاح في علوم البلاغة، الخطيب القزويني (739هـ): 1/ 24
[3] ) يوسف: 65
[4] ) بيان إعجاز القرآن، الخطابي (388هـ): 42
[5] ) تفسير القرآن، أبو مظفر السمعاني (489هـ): 3/ 46
[6] ) الإيضاح في علوم البلاغة، الخطيب القزويني (739هـ): 1/ 26

**2ـ ضعف التأليف:** وهذا من شروط فصاحة الكلام. نجد التصريح بضعف التأليف عند الباقلاني (403هـ)، وذلك في معرض المقارنة بين بلاغة القرآن وغيره؛ ليبين أن الشعر يقع فيه من سوء النظم، وضعف التعبير ما لا يكون في القرآن، وذلك عندما انتقد شعرا لمرئ القيس في الطويل:

**قفا نَبكِ من ذكرى حبيب ومنزلِ بسِقْط اللِّوى بين الدَّخُول فحَومَلِ**

**فَتُوضِحَ فالمِقْراةِ لم يَعْفُ رسمُها لِما نَسَجَتْها مِن جَنُوبٍ وشَمْـأَلِ.**[1]

فاستدرك الباقلاني (403هـ) على الشاعر قوله (لما نسجتها)، وأشار إلى أنه كان ينبغي أن يقول: (لما نسجها) ولكنه تعسف فجعل (ما) في تأويل تأنيث، لأنها في معنى الريح، والأولى التذكير دون التأنيث، وضرورة الشعر قد قادته إلى هذا التعسف.[2]

فبذلك تتبين مكانة مصنفات الإعجاز ودورها في تقرير الجماليات البلاغية، حيث إن ضعف التأليف عند البلاغيين: هو أن يكون تأليف الكلام على خلاف القانون النحوي المشهور بين الجمهور، كما في قولنا: (ضرب غلامه زيدًا)، فإن رجوع الضمير إلى المفعول المتأخر لفظًا ممتنع عند الجمهور، لئلا يلزم رجوعه إلى ما هو متأخر لفظًا ورتبة.[3]

**3ـ التعقيد:** هو عدم ظهور المعنى المراد منه للمتكلم، وهو من شروط فصاحة الكلام، وله سببان:

**أ ـ التعقيد اللفظي:** ونجد ذكر التعقيد اللفظي في مصنفات الإعجاز عند الباقلاني (403هـ) حين ينتقد شعرا لامرئ القيس في الطويل:

**وقوفاً بها صحبي عليَّ مطيهمُ يقولون: لا تهلك أسى وتحمـلِ.**[4]

البيت متعلق بقوله (قفا نبك) في صدر القصيدة، فكأنه قال: قفا وقوف صحبي بها على مطيهم، أو: قفا حال وقوف صحبي، وقوله (بها) متأخر في المعنى وإن تقدم في اللفظ، ففي ذلك تكلف وخروج عن اعتدال الكلام.[5] يشير إلى أهمية ورود الكلام على سجية المتكلم، وحسب ما يتطلبه موقع كل كلمة في السياق المراد دون المساس بالرصف المقبول، أو المثالي للكلمات تفاديا للالتباس في اللفظ الذي يؤدي إلى الاختلال في المعنى. وإلى ذلك دعا القرآن المشركين حيث تحدى بأن يأتوا بمثله في نظم مشابه للقرآن دون التقيد بالمعاني الواردة فيه، أي: ((مثله في النظم، وليكن المعنى مفترى كما قلتم، فلا إلى المعنى دعيتم، ولكن إلى النظم.))[6]

---

[1] ) ديوان امرئ القيس: 110
[2] ) إعجاز القرآن، الباقلاني (403هـ): 161
[3] ) الإيضاح في علوم البلاغة، الخطيب القزويني (739هـ): 28/1
[4] ) ديوان امرئ القيس: 111
[5] ) إعجاز القرآن، الباقلاني (403هـ): 162
[6] ) الرسالة الشافية، الجرجاني (471هـ): 141

والتعقيد اللفظي عند علماء البلاغة: أن يختل نظم الكلام، بحيث يصعب أن يتوصل إلى معناه وذلك لعدم كون ترتيب الألفاظ على وفق ترتيب المعاني، وإن كان ذلك في الكلام جاريًا على قواعد النحو. كقول الفرزدق في الطويل:

**وما مثله في الناس إلا مملكًا أبو أمه حي أبوه يقاربه.**[1]

يمدح الفرزدق إبراهيم بن هشام المخزومي[2] خال الخليفة هشام بن عبد الملك. معنى البيت: وما مثل إبراهيم في الناس حي يشبهه في فضائله غير ملك أبو أمه أبوه. وأصل ترتيب الكلام: وما مثله في الناس حي يقاربه إلا مملكا أبو أمه أبوه، فقدم وأخر في الكلمات، فألغز إلغازا سيئا.[3]

**ب ـ التعقيد المعنوي:** ونجد الإشارة إلى التعقيد المعنوي عند الخطابي، حيث ذكر ذلك في معرض رده على بعض الشبه الواردة من قبل المشككين في فصاحة القرآن، فبين أنما يرونه تعقيدا في المعنى فهو من جماليات النص القرآني؛ لكن القوم لم يحسوا به لقصور قريحتهم اللغوية والبلاغية، وبهذا اتضح أن الخطابي بيّن ما لا يعد تعقيدا معنويا.[4] أما الباقلاني (403هـ) فقد أشار إلى ما يعد تعقيدا معنويا، وذلك عند انتقاده بيتا للبحتري في الكامل:

**وسحابةٍ لولا تتابع مُزْنِها فينا لراح المزنُ غيرَ مُبَخَّل**[5]

فبين الباقلاني (403هـ) وجود التعقيد المعنوي في البيت المذكور بقوله: ((وقد وقع في المصراع الثاني ضرب من الخلل، وذلك: أن المزن إنما يُبخَّل إذا منع نيله، وذلك موجود في كل نيل ممنوح، وكلاهما محمود مع الإسعاف، فإن أسعف أحدهما ومنع الآخر لم يمكن التشبيه، وإن كان إنما شبه غالب حال أحدهما بالآخر، وذكر قصور أحدهما عن صاحبه، حتى إنه قد يبخل في وقت والآخر لا يبخل بحال فهذا جيد، وليس في حمل الألفاظ على الإشارة إلى هذا شئ.))[6]

والتعقيد المعنوي عند علماء البلاغة: هو ألا يكون انتقال الذهن من المعنى الأول إلى المعنى الثاني ـ الذي هو المعنى الكنائي أو المجازي ـ ظاهرًا.[7] مثاله قول العباس بن الأحنف:

**سأطلب بعد الدار عنكم لتقربوا وتسكب عيناي الدموع لتجمدا**[8]

---

1 ) الكامل في اللغة والأدب، المبرد (285هـ): 1/ 28

2 ) إبراهيم بن هشام بن إسماعيل المخزومي القرشي: أمير المدينة المنورة، وخال هشام ابن عبد الملك. اشتهر بشدته وعتوه، وعزله هشام سنة 115هـ ، وقتل سنة 125هـ. (البيان والتبيين، الجاحظ (255هـ): 1/ 261 ، (تأريخ دمشق، ابن عساكر (571هـ): 7/ 259)

3 ) البلاغة العربية، عبد الرحمن الميداني (1425هـ): 1/ 124

4 ) بيان إعجاز القرآن، الخطابي (388هـ): 38 – 47

5 ) ديوان البحتري: 3/ 1749 وفي الديوان: وسماحة. بدلا من وسحابة.

6 ) إعجاز القرآن، الباقلاني (403هـ): 233 – 234

7 ) الإيضاح في علوم البلاغة، الخطيب القزويني (739هـ): 1/ 33 – 34

8 ) ديوان العباس بن الأحنف: 106

فأراد أن يكني بالجمود عما يوجبه اللقاء الدائم من السرور، لظنه أن الجمود هو خلو العين من البكاء مطلقا من غير اعتبار شيء آخر، وأخطأ في مراده إذ الجمود هو خلو العين من البكاء عند إرادة البكاء.[1]

يتبين مما سبق أن علماء الإعجاز أولوا عنايةً بالغةً بالفصاحة بوصفها من صلب البلاغة المعجزة، ومما يلحظ في التنافر أنَّه لا يمسُّ المعنى بسوء، بحيث يكون عويصًا وغير مفهوم لدى المتلقي، إلا أنه يودي بعنصر التأثير نحو الهاوية لصعوبة سريانه على اللسان وإن كان جذابا. وقد يستخدم التنافر بشكل متعمد لإضفاء لمسة من الفكاهة أو لجذب الانتباه، وهذا يعتمد على الغرض والجمهور المستهدف. كما يمكن أن تكون الغرابة مستحسنة إذا تم استخدامها بشكل فني حيث يمكن لها أن تضيف عمقا وإبداعا للنص، لكن يجب استخدامها بتوخي الحذر للحفاظ على سلامة المعنى. وقواعد اللغة يعزز احترامها عنصر الفصاحة في الكلام، ويساعد في ترتيب الأفكار وتنظيمها بطريقة صحيحة، كما يسهم في تحسين جودة التواصل.

## الخاتمة

توصل البحث إلى نتائج، ويمكن إيجازها فيما يأتي:

1. تناول علماء الإعجاز مصطلح الفصاحة من مساراتٍ متنوّعة ولم يرسموا الفصاحة برسم التّعريف على طريق الحدِّ المنطقي بحيث يبيّن حقيقة مفهومِها، كما هو فعل متأخروا علماء البلاغة، فالفصاحة والبلاغة عندهم تدوران في فلك واحد إلى حدٍّ بعيد، وإن كانوا قد وضعوا ضوابط لفصاحة اللفظ أفاد منها علماء البلاغة وبنوا عليها في بناء التّعريفات وتقسيمِها

2. ذهب الباقلاني (403هـ) إلى أنَّه كلَّما ضعف اهتمام المتكلّمُ بالمعنى، زادت إمكانية تحكّمه بالألفاظ وسعة اختيارِه لها ، ليتصرف فيها وفقًا لأغراضِه ومقاصده الكلاميَّة دون الالتفات إلى الدقة اللغوية والتَّعبير الفعال.

3. كان القاضي عبد الجبار من أكثر علماء الإعجازعنايةً بالفصاحة، فقد بذل جهدًا في دراسة مسألة الفصاحة وتوظيفِها في بيان إعجاز القرآن، وعدَّ الفصاحة مناطَ إعجازِه، فكانت الفصاحة عنده أوسع ميدانًا في المفهوم والإجراء والتّحللي ممّن قبله من علماء الإعجاز

4. الغرابة لا تكون مذمومة على الدوام، ومن الألفاظ ما يكون غريبًا ولكنَّه يعدُّ من مظاهر الجمال البلاغي، والمعنى الغريب الذي لم يسبق إليه قد يكون من نقاط قوة البلاغة في الكلام، ومن دواعي تقديم نصٍّ وتفضيلِه على آخر.

[1] ) معاهد التنصيص على شواهد التلخيص، عبد الرحيم العباسي (963هـ): 1/ 52

## المصادر والمراجع

القرآن الكريم.

1- أسرار البلاغة، أبو بكر عبد القاهر بن عبد الرحمن بن محمد الفارسي الأصل، الجرجاني الدار (471هـ)، قرأه وعلق عليه: محمود محمد شاكر، مطبعة المدني بالقاهرة، دار المدني بجدة.

2- إعجاز القرآن، أبو بكر الباقلاني (403هـ) محمد بن الطيب (403هـ)، المحقق: السيد أحمد صقر، دار المعارف، مصر، الطبعة الخامسة، 1997م.

3- الإيضاح في علوم البلاغة، محمد بن عبد الرحمن بن عمر، أبو المعالي، جلال الدين القزويني الشافعي، المعروف بخطيب دمشق (739هـ)، تحقيق: محمد عبد المنعم خفاجي، دار الجيل – بيروت، الطبعة الثالثة.

4- البلاغة العربية، عبد الرحمن بن حسن حَبَنَّكَة الميداني الدمشقي (1425هـ)، دار القلم، دمشق، الدار الشامية، بيروت، الطبعة الأولى، 1996 م .

5- البيان والتبيين، عمرو بن بحر بن محبوب الكناني بالولاء، الليثي، أبو عثمان، الشهير بالجاحظ (255هـ)، دار ومكتبة الهلال، بيروت، 1423 هـ .

6- تاريخ دمشق، أبو القاسم علي بن الحسن بن هبة الله المعروف بابن عساكر (571هـ)، المحقق: عمرو بن غرامة العمروي، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، 1995 م.

7- تاريخ النقد الأدبي عند العرب، إحسان عباس (2003م)، دار الثقافة، بيروت، لبنان، الطبعة الرابعة، 1983م.

8- تحرير التحبير في صناعة الشعر والنثر وبيان إعجاز القرآن، عبد العظيم بن الواحد بن ظافر ابن أبي الإصبع العدواني، البغدادي ثم المصري (654هـ)، تقديم وتحقيق: الدكتور حفني محمد شرف، الناشر: الجمهورية العربية المتحدة – المجلس الأعلى للشئون الإسلامية – لجنة إحياء التراث الإسلامي.

9- تفسير القرآن، أبو المظفر، منصور بن محمد بن عبد الجبار ابن أحمد المروزى السمعاني التميمي الحنفي ثم الشافعي (489هـ)، المحقق: ياسر بن إبراهيم وغنيم بن عباس بن غنيم، دار الوطن، الرياض – السعودية، الطبعة الأولى، 1997م.

10- الحيوان، عمرو بن بحر بن محبوب الكناني بالولاء، الليثي، أبو عثمان، الشهير بالجاحظ (255هـ)، دار الكتب العلمية – بيروت، الطبعة الثانية، 1424 هـ.

11- خصائص التراكيب دراسة تحليلية لمسائل علم المعاني، محمد محمد أبو موسى، مكتبة وهبة. الطبعة السابعة.

12- دلائل الإعجاز بين أبي سعيد السيرافي والجرجاني، حسن بن إسماعيل بن حسن بن عبد الرازق الجناجيُ رئيس قسم البلاغة بجامعة الأزهر (1429 هـ)، دار الطباعة المحمدية القاهرة، مصر، الطبعة الأولى،1991م.

13- دلائل الإعجاز في علم المعاني، أبو بكر عبد القاهر بن عبد الرحمن بن محمد الفارسي الأصل، الجرجاني الدار (471هـ)، المحقق: محمود محمد شاكر أبو فهر، مطبعة المدني بالقاهرة – دار المدني بجدة، الطبعة الثالثة، 1992م.

14- ديوان امرئ القيس، ضبطه وصححه: مصطفى عبد الشافي، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، 2004هـ .

15- ديوان البحتري، تحقيق وشرح وتعليق: حسن كامل الصِيرَفي، دار المعارف، القاهرة، مصر، الطبعة الثالثة.

16- ديوان العباس بن الأحنف، شرح وتحقيق: عاتكة الخزرجي، دار الكتب المصرية، القاهرة، 1954م.

17- ديوان العجاج، برواية وشرح عبد الملك بن قريب الأصمعي، دار الشرق العربي، بيروت، لبنان، حلب سورية، 1995م.

18- ديوان المتنبي، دار بيروت، بيروت، لبنان، 1983م.

19- رسائل الجاحظ، عمرو بن بحر بن محبوب الكناني بالولاء ، الليثي، أبو عثمان، الشهير بالجاحظ (255هـ)، تحقيق وشرح: عبد السلام محمد هارون، مكتبة الخانجي، القاهرة، 1964م.

20- الرسالة الشافية، مطبوع ضمن: ثلاث رسائل في إعجاز القرآن [سلسلة: ذخائر العرب (16)]، أبو بكر عبد القاهر بن عبد الرحمن بن محمد الفارسي الأصل، الجرجاني الدار (471هـ)، الطبعة الثالثة، المحقق: محمد خلف الله، د. محمد زغلول سلام، دار المعارف بمصر، 1976م.

21- شعر أبي حية النميري، جمع وتحقيق: يحيى الجبوري، وزارة الثقافة والإرشاد القومي، دمشق، 1975هـ.

22- عروس الأفراح في شرح تلخيص المفتاح، أحمد بن علي بن عبد الكافي، أبو حامد، بهاء الدين السبكي (773هـ)، المحقق: الدكتور عبد الحميد هنداوي، المكتبة العصرية للطباعة والنشر، بيروت – لبنان، الطبعة الأولى، 2003 م.

23- علم المعاني، عبد العزيز عتيق (1396هـ)، دار النهضة العربية للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت – لبنان، الطبعة الأولى، 2009 م.

24- في بلاغة الخطاب الإقناعي، د. محمد العمري، أفريقا الشرق، الطبعة الثانية، 2002م.

25- في الميزان الجديد، محمد مندور (1385هـ)، نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع، 2004م.

26- الكامل في اللغة والأدب، محمد بن يزيد المبرد، أبو العباس (285هـ)، المحقق: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار الفكر العربي، القاهرة، الطبعة الثالثة، 1997م.

27- معاهد التنصيص على شواهد التلخيص، الشيخ عبد الرحيم بن أحمد العباسي (963هـ)، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، عالم الكتب، بيروت، 1947م.

28- المغني في أبواب التوحيد والعدل، القاضي عبد الجبار (415هـ)، قوم نصه على نسختين خطيتين أمين الخولي.

29- مفتاح العلوم، يوسف بن أبي بكر بن محمد بن علي السكاكي الخوارزمي الحنفي أبو يعقوب (626هـ)، ضبطه وكتب هوامشه وعلق عليه: نعيم زرزور، الطبعة الثانية، دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان، 1987 م .

30- النكت في إعجاز القرآن، مطبوع ضمن: ثلاث رسائل في إعجاز القرآن [سلسلة: ذخائر العرب (16)]، علي بن عيسى بن علي بن عبد الله، أبو الحسن الرماني المعتزلي(384هـ)، المحقق: محمد خلف الله، د. محمد زغلول سلام، دار المعارف بمصر، الطبعة: الثالثة، 1976م.

الدوريات:

- الغرابة وشعرية المعنى المبتكر في النقد القديم، د. نسيبة العرفي، مجلة اللغة العربية، العدد 43، المجلد: 21 ، السنة: 2019م.